

امتداد الطريقة التجانية في غرب إفريقيا ودورها الديني والتربوي بالمنطقة خلال القرن 19م

The Tijaniya Order in West Africa and its religious and educational role in the region during the 19th century

جامعة يحي فارس المدينة/ الجزائر	تاريخ حديث ومعاصر	سعيدة زفازف - أستاذ محاضر ب zafzaf.saida@univ-medea.dz
DOI :		

الإرسال: 2025/04/10 القبول: 2025/09/28 النشر: 2025/12/20

ملخص:

إن دراسة الطرق الصوفية ومشايخها وكتاباتهما ومعتقداتهما وممارساتها، مازالت محل اهتمام الباحثين ليومنا هذا، خاصة في جانبها التاريخي والتربوي والاجتماعي، لهذا شمل بحثنا الطريقة التجانية ودورها الديني والتربوي في غرب إفريقيا، والذي سنتطرق من خلاله إلى مؤسس الطريقة الشيخ أحمد التجاني، حياته وبداية تلقين أرواد طريقته التي عرفت انتشارا واسعا، ليس في الجزائر فقط بل شملت معظم بلدان المغرب والمشرق العربيين وإفريقيا، وحسب أتباعه يعود ذلك لارتباطها بمبادئ الدين الإسلامي وإلى بساطتها وسهولة تعاليمها، ومذهبا الواضح، الذي كان قريبا من التفكير الشعبي السائد آنذاك، وعن انتشارها في غرب إفريقيا يعود الفضل إلى عدد من الشخصيات البارزة التي أخذت أرواد الطريقة من مؤسسها أو مقدميها، وبدأت في نشرها حتى ذاع صيتها وشمل كل المنطقة، إذ نجد من أبرز هذه الشخصيات الحاج عمر الفوتي، وبالنسبة لدورها الديني تمثل في نشر الإسلام وبناء مساجد وزوايا ومراكز دينية تخرج منها علماء حملوا لواء الدعوة بالقضاء على الوثنية ومحاربة المد الاستعماري بالمنطقة، والتربوي بغرس القيم والأخلاق والآداب الفاضلة.

كلمات المفتاحية: التصوف، التجانية، غرب إفريقيا، التربية الروحية، الإسلام

Abstract :

The study of Sufi orders, their sheikhs, writings, and beliefs, is still of interest to researchers to this day, especially in their historical, educational, and social aspects. This is why our research included the Tijaniya Order and its religious and educational role in West Africa. We will discuss the founder of the order, Sheikh Ahmed al-Tijani, his life, and the beginnings of his method, which was widely spread not only in Algeria but also in most countries of the Maghreb, the Arab Levant, and Africa. Its spread in West Africa is due to a number of prominent figures who took the method from its founder or presenters and began disseminating them. Its religious role was represented by spreading Islam and building mosques,

zawiyas, and religious centers. Its educational role was represented by instilling virtuous values, morals, and etiquette.

Keywords: Sufism/ Tijaniya/ West Africa /Education/ Islam

مقدمة:

بالرغم مما وجد من أبحاث ودراسات من طرف الباحثين العرب والمستشرقين، حول موضوع الطرق الصوفية ومشايخها وكتابتها ومعتقداتها وممارساتها، إلا أنها لا تزال محل بحث واهتمام، يجب أن يعنى بها الدارسون، ويولونها أهمية بالغة، باعتبارها حلقة مهمة في سلسلة تاريخنا الديني والثقافي، خاصة أمام أدوارها التاريخية ومنجزاتها التربوية والاجتماعية.

وبالعودة إلى أصل الطرق الصوفية في العالم الإسلامي، نجدها ارتبطت بظهور شخصيات صوفية عملية قامت بتأسيس هذه الطرق، ثم تفرعت هذه الأخيرة وتعددت حسب شخصيات الشيوخ ومدى تأثيرها في الأوساط الشعبية، إذ كان كل شيخ يلحق أوراده ومنهجه لشيخ آخر يرث طريقته من بعده ويتولى بدوره تربية مريديه، ومن هنا ذاعت الطرق الصوفية وعرفت انتشارا واسعا وتأثيرا بعيدا في أعماق المجتمع المسلم، وقد انتفى إليها العديد من الدعاة والفقهاء، الذين بلغوا قدرا كبيرا من العلم والمعرفة، واشتهر هؤلاء الدعاة وكان لهم دور واضح في التربية وفي نشر الدعوة الإسلامية.

وقد كان منطلق الصوفية من الزوايا التي كانت عبارة عن مساجد ومدارس ومراكز للتربية الروحية، باعتبارها مؤسسات دينية، إذ يعود الفضل إليها في تكوين مجموعة من العلماء والفقهاء وحفظة القرآن الكريم الذين كانوا واسطة فعلية في نقل الإسلام إلى مختلف بقاع العالم، بما فيها أعماق الصحراء وغرب إفريقيا، وكان لهم دور كبير في الحفاظ على اللغة والثقافة العربية.

وعن تواجد الطرق الصوفية ببلاد المغرب الإسلامي، فإن دخول التصوف عموما، كان أوائل القرن الخامس الهجري أو قبله بقليل، إذ بني التصوف ببلاد المغرب بداية الأمر على الزهد والتقشف والنسك وحمل الناس على المجاهدة في الطاعة والوقوف مع ظواهر الشرع، دون التغلغل في علوم المكاشفات والحقائق، لذلك لم يحتدم الصراع في المغرب في

ذلك العصر بين الفقيه والصوفي كما حدث في المشرق من قبل، وفي أواخر القرن الثامن الهجري، اتخذ التصوف شكلا تنظيميا تمثل في طرق أو طوائف كما يطلق عليها، حيث أقام المتصوفة لأنفسهم خلوات من أجل العبادة الزائدة عن العبادات المفروضة، ولم يقتصر هدفهم على العبادة وإرشاد الأعضاء في الممارسات الروحية، وإنما حرصوا على توفير حياة يسودها الولاء والإخلاص لقائد أو مرشد هذه الطريقة أو الطائفة.

وبالنسبة لانتشار الطرق الصوفية في الجزائر، فقد عرفت طريقها إليها منذ القرن العاشر الهجري السادس عشر ميلادي، وتوسع انتشارها ونشاطها في فترات لاحقة، حيث وصل عدد الطرق التي لها زوايا وشيوخ ومقدمون إلى ستة وعشرون طريقة محلية ووافدة، (سعد الله، 2005، ص180) ومن أبرز الطرق الصوفية التي عرفت انتشارا واسعا وصدى كبيرا ليس في الجزائر فقط بل في المغرب العربي، وفرضت نفسها في معظم بلدان المشرق العربي وبدول إفريقيا وحتى أوروبا، الطريقة التجانية التي هي محور موضوعنا، الذي يهدف إلى التعريف بالدور والبعد الديني والتربوي والثقافي لشيوخ وأتباع الطريقة، وسط مجتمعات غرب إفريقيا، من خلال نشر مبادئ الشريعة الإسلامية والثقافة العربية، والآداب والأخلاق الصوفية، إضافة لموقفها من الاستعمار الفرنسي.

ومن هنا يمكننا التساؤل:

- من هو الشيخ أحمد التجاني وكيف ظهرت طريقته؟
- ما هي العوامل التي ساعدت وأسهمت في انتشار تعاليمها في مختلف بلدان المغرب العربي وفي غرب إفريقيا بصفة خاصة، سواء في عهد شيخها المؤسس أو مع خلفائه ومريديه بعده؟
- كيف كان دورها الروحي والتربوي بمنطقة غرب إفريقيا؟

الشيخ أحمد التجاني وظهور الطريقة:

ولد الشيخ أحمد التجاني بعين ماضي سنة (1150هـ/1737م)، أبوه الشيخ أبو عبد الله محمد بالفتح بن المختار، وأمه عائشة بنت أبي عبد الله محمد بن الرفع بن السنوسي التجاني نسبة إلى قبيلة بني توجين، نشأ وترعرع بمسقط رأسه وحفظ القرآن الكريم وهو في السابعة من عمره على يد الشيخ أبي عبد الله محمد بن حمو التجاني، ثم تلقى علوم

الحديث والعلوم الشرعية الأخرى على يد مجموعة من العلماء (براد، 2008، ص17)، ولما بلغ الواحدة والعشرين من عمره شدّ الرحال إلى المغرب الأقصى، حل بمدينة فاس سنة (1171هـ/1757م)، والتي كانت حاضرة علم يقصدها الطلاب من كل مكان، لازم شيوخها ينهل من منابع العلم والمعرفة، واطلع خلالها على الكثير من كتب التصوف.

في بادئ الأمر انخرط الشيخ أحمد التجاني في بعض الطرق الصوفية، فقد أخذ عن الشيخ الطيب الوزاني شيخ الطريقة الطيبية أوراها، كما أخذ عن الشيخ محمد بن عبد الله التزاني الطريقة الناصرية، ثم أخذ ورد الطريقة القادرية بفاس، وأخذ طريقة أبي العباس أحمد الحبيب الملقب بالغماري السجلماسي الصديقي، غير أنه سرعان ما ترك كل هذه الطرق كونه كان يطمح لتأسيس طريقته (براد، 2008، ص24)، بعد فاس قضى الشيخ التجاني فترة يتردد فيها على الصحراء وتلمسان، فقد بقي في الأبيض سيدي الشيخ خمسة أعوام، كما زار عين ماضي مسقط رأسه ومكث فيها طويلا، ثم توجه إلى تلمسان التي بقي بها حوالي خمس سنوات ما بين (1181هـ/1186هـ-1768م/1773م)، بعدها زار البقاع المقدسة سنة (1186هـ/1773م)، مرّ خلالها بمنطقة زاوية التي أخذ بها الطريقة الخلوتية على يد الشيخ محمد بن عبد الرحمان الأزهري، وتوقف بتونس، مكث بها قرابة السنة قصد التعبد والتدريس، ثم توجه إلى مصر وأخذ الطريقة الخلوتية عن الشيخ محمود الكردي، وبعد قضائه حوالي سنتين في المشرق العربي (سعد الله، 1998، ص510)، عاد إلى تلمسان بقي بها ما بين سنوات (1188هـ/1196هـ-1775م/1781م) متفرغا للعبادة وتلقين الطريقة الخلوتية لبعض من أصحابه، كما كان يتردد على فاس، قصد فيما بعد قرية أبي سمغون جنوب غرب البيض، واستقر بها إلى غاية سنة (1199هـ/1784م) (تلمساني، 1998، ص70).

وعن ظهور الطريقة التجانية، كان ذلك سنة (1196هـ/1781م) عندما كان الشيخ أحمد التجاني في قرية أبي سمغون (براد، 1961، ص51)، بدأ في تلقين أوراها لمن طلبهم من أصحابه الذين التفوا حوله، بدأ ينتقل من منطقة إلى أخرى، فمن قرية أبي سمغون انتقل إلى بلدته عين ماضي ليجعل منها المقر الرئيسي لطريقته، فقد استطاع خلال ثمانية عشر سنة قضاها في التنقل من جهة إلى أخرى في المناطق الصحراوية أن يرسي أسس طريقته

بها، حيث عمد إلى تأسيس زاوية بكل مكان يحل به، ويعين لها مقدما يأمره بنشر طريقته، هكذا توسع نفوذها وارتفع عدد مريديها خاصة في الصحراء (هلال، 1988، ص122).

غير أن هذا الانتشار الذي حققته الطريقة التجانية بأدوارها الدينية والثقافية، إضافة إلى الطموح السياسي لشيخها المعارض للحكم العثماني، أقلق باي الغرب الجزائري محمد الكبير، الذي ضيق الخناق على مؤسسها، ما جعله يرحل نحو فاس مع جماعته ومساعديه سنة 1213هـ/1798م، وهناك قام ببناء وتشيد زاويته بفاس سنة 1215هـ/1800م، وبقي داعيا للطريقة إلى غاية وفاته سنة 1230هـ/1815م (الأزمي، 2000، ص140).

وتمثلت أورداد طريقته في الاستغفار مائة مرة، الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم مائة مرة، وان كانت صلاة الفاتح أفضل وهي " اللهم صل وسلم على سيدنا الفاتح لما أغلق والخاتم لما سبق، ناصر الحق بالحق والهادي إلى صراطك المستقيم، وعلى آله حق قدره ومقداره العظيم"، ولا اله إلا الله مائة مرة، وهذا الورد يقرأ صباحا ومساء.

وألفاظ الوظيفة هي أستغفر الله العظيم ثلاثين مرة، وصلاة الفاتح خمسين مرة، وجوهرة الكمال اثني عشرة مرة، وتجب مرة واحدة في اليوم والليلة ويمكن ذكرها مرتين في الصباح ومرة في المساء فتكون حينئذ كالورد. أما هيللة يوم الجمعة فيذكر لا اله إلا الله بلا عدد بعد صلاه عصر يوم الجمعة إلى الغروب، وان شاء أن يلتزم على نفسه عدد ألف فأكثر، ولا ينقص على الألف ولا يزيد على الألف وستمائة (الطصفاوي، 2009، ص93).

بالنسبة لأورداد الطريقة يذكر الشيخ أحمد التجاني، حسب ما ورد من أتباعه على لسانه وفي مصادر الطريقة، أنه رأى الرسول صلى الله عليه وسلم يقظة، وهو من لقنه الأورداد وأذن له تلقين الطريقة لمن أرادها، وأن ما تلقاه من المشايخ الآخرين من الأورداد لم يرو ظمأه ولم يحقق له المقصود.

التربية الروحية للطريقة التجانية:

إن مصطلح التربية الروحية عند الصوفية عموماً، يعني التخليّة قبل التحليّة، بمعنى تخليّة الباطن من الرذائل وتحليته بالفضائل، والتربية الروحية عندهم، تحتل المقام الأول اقتداء بالرسول عليه الصلاة والسلام، الذي كان على جانب عظيم من التربية الحقيقية والخلق القويم، لذلك كان حرصهم واهتمامهم الشديد على العناية بتطهير القلب وتركبة النفس وجعلها من مهامهم الرئيسة ووظائفهم الأساسية (العقبي، 2002، ص63)، وذلك بالتخلي عن جميع الصفات الأخلاقية المذمومة الموجودة فيها وإخلاؤها منها، واستبدالها بالصفات والفضائل الأخلاقية المحمودة شرعاً.

وعن التربية في الطريقة التجانية فهي مشيّدة على قواعد الكتاب والسنة، فمن شروط دخولها، المحافظة على الأمور الشرعية علماً وعملاً، وكل من أراد سلوك طريق التربية الروحية فيها، عليه التقيد بأذكارها جملة وتفصيلاً، وعليه أن يلتزم بشروطها الأربعين وأدائها المقررة في كتب الطريقة (الفوتي، 2008، ص372)، والتي بدورها تنقسم إلى قسمين: شروط كمالية وأخرى لازمة، وكل منها ينقسم إلى قسمين شروط تتعلق بالشخص، وشروط تتعلق بالأوراد، فالكمالية المتعلقة بالشخص عشرون شرطاً، منها أن يختار مقدماً تقياً صحيح الإذن، أن يحافظ على الصلوات الخمس في أوقاتها، أن يأتي بالبسملة في جميع الصلوات، أن يطمئن في الركوع والسجود، أن يجتهد ولو بركعتين يقرأ فيها ما تيسر من القرآن، أن يلازم رواتب الفرائض، أن يكون صادقاً في أقواله غير كاذب في شيء منها، أن يبر والديه، أن يداوم على محبة الشيخ واحترامه، حسن المعاملة مع الغير وعدم مقاطعتهم، واللازمة المتعلقة بالشخص ثلاثة منها أن لا يترك الورد بعد أخذه، أما اللازمة المتعلقة بالأوراد نذكر منها: طهارة الجسد والثوب والمكان، النية، الطهارة المائية لجوهرة الكمال، الجلوس لقراءة الوظيفة إلا لعذر (الطصفاوي، 2009، ص89).

فالمتتبع لسيرة الشيخ أحمد التجاني حسب ما ذكره أتباعه وما ورد في كتب الطريقة، يجدها كلها تربية سلوكية لمريديه من الطريقة، والتي شملت حسن الخلق، التقوى، العفة، الورع وموافقة الشريعة ومتابعة السنة، حب أهل الصلاح والفضل وإكرام أهل العلم والإكثار من ذكر الله والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، المحافظة على صلة الرحم التواضع مع الفقراء والمساكين والاشتغال بالعلم (التجاني، 2008، ص137).

لقد كان الشيخ أحمد التجاني طوال حياته يربي أتباعه على تركية النفس والرفي بها، حاثهم على التمسك بمبادئ الشريعة، ليسيروا على نهجه خلفائه من بعده وعلماء الطريقة، ساعين على غرس القيم والأخلاق والآداب الإسلامية الفاضلة في نفوس مريديهم، ما أدى إلى تأثير عدد كبير بهم ممن حولهم، وهذا ما ساعد كثيرا في نشر الطريقة عبر بقاع العالم خاصة إفريقيا.

فمن وصاياه حسب أتباعه: "أوصيكم ونفسي بما أوصاكم الله به، وأمركم به من حفظ الحدود ومراعاة الأمر الإلهي، على حسب جهدكم واستطاعتكم... فتركوا مخالفة أمر الله ما استطعتم، وقوموا بأمره على حسب الطاعة... أديموا الصلوات المفروضة في الجماعات، بالمحافظة على ذكر الله والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، وعليكم بالمحافظة على الصدقة، وليكن من جملة أوراكم التي تحافظون عليها بعد الورد الذي هو لازم الطريقة، الحزب السيوفي وصلاة الفاتح... وعليكم بصلة الرحم، وتجنبوا معاداة ذوي الأرحام وعقوق الوالدين، وتجنبوا البحث عن عورات المسلمين، وعليكم بمناصحة إخوانكم في الطريقة..." (الشنقيطي، 2007، ص 159)

منطقة غرب إفريقيا:

منطقة غرب إفريقيا وهي المنطقة الواقعة بين المناطق الصحراوية أو شبه الصحراوية من الشمال وبين نطاق الغابات الاستوائية في الجنوب، وقد عرفت عند الرحالة باسم بلاد السودان، وهي تضم كل من موريتانيا، السنغال، مالي، غينيا، ساحل العاج، بوركينا فاسو، النيجر، نيجيريا، طوغو، غانا، بنين، ثم الشريط السوداني الكبير كتشاد والكاميرون والسودان. وقد انتشر الإسلام في العديد من مناطقها عبر مراحل بطرق مختلفة ووسائل متعددة ومتنوعة، بداية مع الفتوحات الإسلامية والهجرات القبلية والقوافل التجارية، إذ كان للتجار والعلماء دور كبير في نشر الإسلام والثقافة العربية في معظم أرجائها (جلولي، 2008، ص 172).

وقد عرفت المنطقة بعض الحركات الإصلاحية وانتشار عدة طرق صوفية خلال القرن التاسع عشر، والتي كان لها دور كبير في انتشار الدين الإسلامي في بعض مناطقها

ومواجهتها للوثنية والديانات المحلية، منها الطريقة السنوسية التي كان لها الفضل في إسلام الكثير من القبائل بعدما كانوا مسلمين اسمياً مثل منطقتي سيديا وتيبستي، والقادرية التي كانت من أبرز وأقدم الطرق الصوفية بغرب إفريقيا، والتي تفرعت بدورها إلى ثلاث فروع، منها الكنتية نسبة للشيخ المختار الكنتي الكبير (ت1226هـ/1811م)، الذي بلغت الطريقة في عهده أقصى مراتب الازدهار والانتشار، بعدما امتدت للسنغال ونيجيريا وغينيا، ثم تواصل امتدادها مع ابنه الشيخ محمد (ت1826) وحفيده الشيخ مختار الصغير (ت1847) والشيخ البكاي (ت1865)، كما كان لها داعية آخر وهو الشيخ سيديا الكبير (1775-1868) الذي كانت دعوته من فوتاجالون إلى المغرب وإلى ضفاف نهر السنغال وتمبكتو (مفتاح، 2008، ص410)، قبل أن تنافسها الطريقة التجانية التي سيكون لها هي الأخرى حضور مميز بغرب إفريقيا.

انتشار التجانية في غرب إفريقيا ودورها الديني والتربوي:

لقد سلكت الطريقة التجانية تقريبا نفس الطريق الذي سلكته الطريقة القادرية التي سبقها في الظهور، وأخذت من الطريق الذي أقامته هذه الأخيرة بين العالم الإسلامي وغرب إفريقيا معبرا للمنطقتين، إذ نظر إليها الناس نظرة رضا خلال القرن التاسع عشر الميلادي (هلال، 1988، ص122)، لأنها خلافا لبعض الطرق الصوفية الأخرى، امتازت التجانية بتعاليمها البسيطة ومذهبها الواضح، الذي كان قريبا من التفكير الشعبي السائد آنذاك في جميع أنحاء العالم الإسلامي.

انتشرت الطريقة في بادئ الأمر على يد الشيخ محمد الحافظ العلوي الشنقيطي، الذي أخذها مباشرة على يد الشيخ أحمد التجاني بفاس، بعدما علمه مبادئ وأسرار الطريقة، ثم عيّنه مقدما له وأجازه لتلقيها لأهالي موريتانيا والسودان ممن أراد دخولها، وبذلك أصبح الشيخ محمد الحافظ أول ممثل للطريقة بالمنطقة إلى غاية وفاته سنة 1246هـ/1830م.

ومع مطلع القرن التاسع عشر الميلادي، ذاع صيتها في السنغال بعدما دخلتها من موريتانيا على يد الشيخ مولود فال تلميذ الشيخ محمد الحافظ العلوي الشنقيطي، غير

أنها لم تعرف الاستقرار والانتشار الواسع إلا على يد الشيخ عمر الفوتي، لتتقسم مع الأيام إلى اثني عشر فرعا ولكل فرع شيخ مستقل عن الأشياخ الآخرين، وتحت كل شيخ مقدمون، ولكل مقدم تلاميذ ولكل هؤلاء مدارس ومساجد وزوايا خاصة بهم، منتشرة في القرى والمدن والأرياف، لتصل الطريقة بعدها إلى مالي وغينيا وغانا ونيجيريا (مفتاح، 1987، ص120).

وعن الحاج عمر بن سعيد الفوتي التكروري (1796-1864)، الذي يعتبر من رواد الطريقة التجانية في غرب إفريقيا، فهو من قرية حلوar بالسينيغال، وسعيا منه وراء المزيد من المعرفة وأخذ العلم، ترك بلده وانتقل بين مدن فوتاتورو قبل أن يشد الرحال إلى جنوب بلاد شنقيط، التي كانت له بها إقامة طويلة، أخذ خلالها على الكثير من علمائها، وتعرف بتاكانت على الكثير من شيوخ التجانية، ثم سافر لقضاء مدة أطول في فوتاجالون (الآزمي، 2000، ص496) مارس خلالها التدريس، ومن الأعلام الذين يعتز الحاج عمر الفوتي بالأخذ عنهم والتتلمذ على أيديهم والتأثر بهم، واللذان مهدا له الطريق لدخول الطريقة التجانية، الشيخ مولود فال وعبد الكريم الناقل الفوتاجالوني، الذي لقّنه أوراها بعدما توطدت علاقته به لكثرة ملازمته له، سواء في بلاد شنقيط أو في فوتاجالون البلد الأصلي للشيخ عبد الكريم الناقل (الآزمي، 2000، ص356).

وفي سنة 1825م توجه لأداء فريضة الحج، والتقى خلالها بالشيخ محمد الغالي أحد أقطاب التجانية ببلاد المشرق العربي، لازمه لمدة ثلاث سنوات بمكة والمدينة ولقّنه الأذكار اللازمة وأجازه في إعطاء كل أورد الطريقة لمن أرادها، وعيّنه شيخا للطريقة التجانية في السودان الغربي، واستغل الحاج عمر الفوتي خلالها الفرصة لزيارة بلاد الشام ومصر لاستكمال معرفته في مختلف العلوم الإسلامية (سكيرج، 1988، ص267).

بعدها عاد الحاج عمر الفوتي إلى بلاده، وصل إلى بورنو سنة 1831م مكث بها مدة من الزمن، تمكن خلالها من نشر الطريقة على أوسع نطاق، ما أقلق المتصوفة القادريين وحاكمها الكانبي، وما جعله يرحل نحو سوكوتو (sokoto) شمال نيجيريا، التقى خلالها بحاكمها محمد بلو وبدأ في نشر الطريقة وصار يدعو مريديه الالتزام بمبادئها وتعاليمها إلى غاية مغادرته المنطقة سنة 1839م، توجه نحو ماسينا (الآزمي، 2000، ص508) التي بقي فيها مدة قصيرة، وبعاصمتها حمد الله بدأ في إعطاء دروس في أمور الدين الإسلامي وعمل

من خلال ذلك على توطيد ركائز الطريقة التجانية ونشر تعاليمها على نطاق أوسع لبعض الطلبة والمهتمين الذين ازداد عددهم شيئا فشيئا، هذا ما جعل أحمد البكاي الكنتي شيخ الطريقة القادرية يحرض أنصاره ضد الحاج عمر الفتوي (الأزمي، ج 2، 2000، ص 417)، ما أجبره على الرحيل إلى سيكو التي بقي بها أقل من عام، وتم سجنه لبضعة أشهر من طرف حاكمها الوثني وبتحريض من أحمد الكنتي، وبعد إطلاق سراحه توجه نحو مسقط رأسه فوتاجالون بالسنگال نهاية سنة 1840م، فكانت الأرض التي أوتيه وأزرتة وشكلت منطلق عمله الدعوي الإصلاح الجهادي، في اتجاه أعالي نهر السنغال وما وراءه وتحديدا مدينة جيكونكو التي استقر بها واتخذها قاعدة له، وخلال تلك الفترة أكمل فيها تأليف بعض كتبه عن الطريقة، وقام ببناء زاويته لنشر الإسلام والطريقة التجانية ومحاربة الوثنية والمسيحية، وكسب الأنصار الذين كونوا نواة جيشه الذي تقوى وأصبح مخلصا له (الأزمي، ج 2، 2000، ص 495).

وبعد مغادرته مدينة جيكونكو الفوتاجالونية حوالي سنة 1849م مجبرا لأسباب سياسية، اختار الإقامة في بلدة دينكراي الخاضعة لنفوذ طامبا الدولة الوثنية الحديثة النشأة، فقد كانت هي وفوتاجالون منطلقا لعمل الحاج عمر الفتوي الدعوي والجهادي والإصلاحي المؤسس على تعاليم الطريقة التجانية (الأزمي، ج 2، 2000، ص 503).

يتبين مما سبق أن أول من دعا إلى التجانية في نيجيريا، هو الحاج عمر الفتوي وتلاميذه، ثم خليفته ابنه أحمد، فبعد مواجهته مع الفرنسيين في منطقة سيكو قاعدة دولته، فرّ مع أسرته وجيشه إلى سيكوتو بنيجيريا، ومعه أخوه محمد البشير وابنه أحمد المدني، هؤلاء كونوا النواة الأولى للتجانية في نيجيريا، كما أسهم في نشرها أحد المغاربة المدعو الشريف محمد، هذا الأخير أخذ الطريقة عن أحمد العبدلوي عن الحاج علي التماسيني عن الشيخ أحمد التجاني، قدم إلى مدينة كنو في فترة أميرها علي المشهور فأخذ عنه الكثير من الأعيان منهم المعلم سعد بن الطاهر، ومحمد سلفا الذي نشرها بين أوساط سكان هوسا وما جاورها من المناطق، ثم انتقل إلى منطقة كنو أيضا في عهد أميرها عباس بن عبد الله الشيخ عبد الوهاب المعروف بالشريف أجذوذ، فازدادت الطريقة انتشارا على

يديه وعلى أيدي خلفائه، وكان الشريف أجدوذ تلميذ الشيخ محمد فتحا بن عبد الواحد النظيفي وهو من أشهر شيوخ التجانية بمراكش.

وقد دخلت التجانية التشاد حوالي سنة 1236هـ/1820م، وانتشرت على يد كبار العلماء المشهورين بالولاية والصالح الذين أسهموا في نشر الدين الإسلامي وإرساء دعائم الطريقة التجانية في معظم البلاد، حيث قاموا ببناء مساجد وزوايا ومراكز دينية تخرج منها علماء حملوا لواء الدعوة من بعدهم (مكي، 2006، ص12).

أما عن الدور التربوي للطريقة التجانية في غرب إفريقيا، فقد بدأه الحاج عمر الفوتي بداية من عام 1840م، بعد استقراره في منطقة فوتاجالون إلى غاية وفاته، وذلك من خلال تنظيم الطريقة وإيضاح أهدافها ومبادئها التي تمثلت فيما يلي:

تَوَجَّ أهدافه بعزمه على تحقيق وحدة البلاد الإفريقية في ظل الإسلام، وذلك ببناء المساجد والزوايا، إذ نجد من أشهر الزوايا التجانية التي انتشرت بمنطقة غرب إفريقيا، زاوية نيرو، زاوية سيقو، كبي بمالي، زاوية لبي، زاوية كنكني، زاوية تنبو في غينيا، زاوية كابو في النيجر، كانو ويولا وماندقيري بنيجيريا، وزاوية أبيشي بالتشاد وغيرها. إضافة إلى بناء المراكز الدينية التي تخرج منها علماء أجلاء حملوا لواء الدعوة بعده.

فإلى جانب عمر الفوتي، قام بالدعوة للإسلام ودخول الطريقة التجانية شيوخ وعلماء كثر من السنغال نذكر منهم، الشيخ مالك سي والشيخ إبراهيم انياس الكولخي التجاني، كان معروفا في جميع مناطق غرب إفريقيا ووسطها بعدما جال في معظم الأقطار شرقا وغربا داعيا إلى الإسلام وتعاليمه وإلى الطريقة التجانية، نجد أيضا من مشايخ الطريقة بالسودان الشيخ مرزوق بن الحسن التجاني وهو من أسس المعهد التجاني بأم درمان لدراسة القرآن وعلومه والحديث وعلومه، محمد البدوي التجاني وهو أول من تولى مشيخة الإسلام بالقطر السوداني، والشيخ أبو القاسم هاشم التجاني أنشأ المعهد العلمي بالجامع الكبير بأم درمان سنة 1330هـ/1912م، الذي ساهم في نشر الطريقة التجانية في المناطق الساحلية من الغابون وغانا والطوغو وساحل العاج وسيراليون (جلولي، 2008، ص176).

لقد عمل الحاج عمر الفتوي على القضاء على التكتلات القبلية، حيث كان ينادي بالتربية الروحية عن طريق ممارسة أوزاد الطريقة التجانية، والعمل على ربط نسيج المجتمع وتماسكه، ليسود الأمن والاستقرار، فعندما قام بأول خطوة لنشر الطريقة في السنغال سنة 1263هـ/1847م، كانت النتيجة أن ذاعت أخباره وانتشرت مبادئه ولاقى قبولا وسط قبائل المنطقة، فارتبط نجاحها بنجاح الإسلام في قضائه على التكتلات القبلية (قداح، 1987، ص121)، ليتولى بعده ابنه أحمد ابن الحاج عمر الفتوي زعامة الحركة الإصلاحية التي قام بها والده قبل وفاته.

كما وقف الحاج عمر الفتوي في وجه الاستعمار الزاحف من سواحل السنغال إلى قلب إفريقيا الغربية، وضد كل المتعاونين معه، وبدأ بسلسلة من الحملات لنشر الإسلام بين القبائل غير المسلمة، حول كل من النيجر والسنغال، عاملا على مقاومة الوثنية، حتى صار قوة سياسية ودينية في المنطقة. أمام هذه المبادئ والأهداف كان من الطبيعي أن يصطدم بالممالك التي حوله وهي ممالك إسلامية ووثنية، خلال سنوات (1266هـ/1271هـ-1850م/1854م)، خاصة بعدما زحف إلى الشمال من الفوتاجالون وقضى على الإمارات الصغيرة، ثم على الوثنيين في سيغو وانتقل إلى مسقط رأسه في السنغال واستسلم له الكثير من الزعماء، وأصبحوا قادة في جيشه، وقاومه آخرون وطلبوا المساعدة من الفرنسيين الذين كانوا يسعون لتحطيم قوته في السنغال، ما جعله يدخل في عدة معارك ومفاوضات معهم، إلى أن توفي سنة 1282هـ/1865م.

يمكن القول أن عمر الفتوي التكروري، يعد من الشخصيات البارزة والمهمة في منطقة غرب إفريقيا، فالمتأمل في حياته ونشاطه الديني وكفاحه السياسي، يخلص إلى أن جهاده كان خارج أرضه، وكان عليه أن يقاوم في جهتين، إحداها داخلية ضد الجماعات الوثنية، وأخرى خارجية ضد الأطماع الاستعمارية الفرنسية، كما كان يسعى يشق الطرق إلى نشر الإسلام والدعوة إلى الطريقة التجانية، في غرب إفريقيا وبلاد السودان إلى أبعد الحدود.

خاتمة:

مما تم عرضة نستخلص أن الطريقة التجانية كان لها انتشار وقبول واسع لدى سكان منطقة غرب إفريقيا، على غرار الطريقة السنوسية والقادرية ومقارنة بالطرق الأخرى، إذ يعود هذا الإقبال الكبير عليها، لعملها بالكتاب والسنة وإلى بساطة تعاليمها، ويسرها وعدم تعقيدها.

كما أصبحت تحتل مكانة مهمة في الحياة الروحية لسكان غرب إفريقيا، بعد التأثير البارز لشيخوخها بالمنطقة، خاصة ما قام به الحاج عمر الفتوي من خلال نشر مبادئها وتعاليمها ومنهجها التربوي والإصلاحي، المعتمد على الإقناع والتسامح والجهاد، فاستطاعت بذلك جمع الصفوف وتوحيد كلمتهم ونشر ثقافة السلم والتسامح وحسن المعاملة، فأهم ما ميز حركته أنها نجحت في تقوية روابط الوحدة بين المسلمين في غرب إفريقيا وأقامت دولة أكثر مركزية.

وقد أسهمت الطريقة التجانية بشكل كبير في انتشار الإسلام والثقافة العربية بمنطقة غرب إفريقيا، وخاصة بين الشعوب الوثنية من خلال مساجدها وزواياها ومدارسها التي شملت العديد من المناطق، وبما أن التجانية كانت حركة دينية إصلاحية واجتماعية، فقد تصدى شيخوخها للمد الاستعماري الفرنسي وقاوموه بشدة رغم كل الصعاب والعراقيل التي واجهتهم، إلا أن ذلك لم يمنهم من مواصلة نشاطهم.

قائمة المراجع:

- أحمد الأزمي. (2000). الطريقة التجانية في المغرب والسودان الغربي خلال القرن التاسع عشر الميلادي. المملكة المغربية: المملكة المغربية.
- أحمد سكيج. (1988). كشف الحجاب عن تلاق مع الشيخ التجاني من الأصحاب. بيروت: المكتبة الشعبية.
- البشير بن خير الدين التجاني. (2008). المنهج التربوي عند سيدي أحمد التجاني. الملتقى الدولي الثاني للطريقة التجانية. قمار الجزائر.

العيد جلوي. (2008). دور الطريقة التجانية في نشر الاسلام والثقافة العربية في غرب إفريقيا. الملتقى الدولي الثاني للطريقة التجانية الخطاب الصوفي التجاني. قمار الجزائر.

بن يوسف تلمساني. (1998). الطريقة التجانية وموقفها من الحكم المركزي بالجزائر(الأمير عبد القادر، الادارة المركزية). رسالة ماجستير. جامعة الجزائر.

سعد الله أبو القاسم. (2005). تاريخ الجزائر الثقافي. بيروت: دار الغرب الاسلامي.

سعد الله أبو القاسم. (1998). تاريخ الجزائر الثقافي. بيروت: دار الغرب الاسلامي.

صالح مؤيد العقبي. (2002). الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر تاريخها ونشاطها. بيروت: دار البراق.

عبد الباقي مفتاح. (1987). أضواء على الشيخ أحمد التجاني وأتباعه. الجزائر: دار الوليد.

عبد الباقي مفتاح. (2008). أضواء على الشيخ عبد القادر الجيلاني وانتشار طريقته. الجزائر: دار الهدى.

عبد الله مكي. (2006). الانتشار العالمي للطريقة التجانية وثمرتها جهودها في التربية الروحية والاجتماعية. الملتقى الدولي للإخوان التجانيين. الجزائر: قمار الجزائر.

علي حرازم براد. (1961). جواهر المعاني وبلوغ الأماني في فيض سيدي أحمد التجاني. مصر: شركة مصطفى الباي الحلبي وأولاده.

علي حرازم برادة. (2008). جواهر المعاني وبلوغ الأماني في فيض سيدي أبي العباس التجاني. بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

عمار هلال. (1988). الطرق الصوفية ونشر الاسلام والثقافة العربية في غرب إفريقيا السمراء. الجزائر: المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية.

عمر بن سعيد الفتوي. (2008). رماح حزب الرحيم في محور حزب الرحيم. بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

- محمد بن عبد الله بن حسنين الشافعي الطصفاوي. (2009). الفتح الرباني فيما يحتاج إليه المرید التجاني. الجزائر: الجزائر.
- محمد بن محمد الصغير الشنقيطي. (2007). الجيش الكفيل بأخذ الثأر ممن سل على الشيخ التجاني سيف الانكار. الجزائر: مطبوعات دار التجاني.
- نعيم قداح. (1987). حضارة الاسلام وحضارة أوروبا في إفريقيا الغربية. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.